الفكاهة في شعر "حافظ إبراهيم"

لم يكن "حافظ إبراهيم" من المكثرين في نظم الشعر الفكاهي، على الرغم مما عُرف عنه -في حياته الخاصة- من نوادر كثيرة تنمّ عن خفة ظل مطبوعة. ولا نعرف سبباً لقلة الفكاهة في شعره -إذا ما قورن بنظيره "أحمد شوقي"- إلا أن يكون الشعر في نظره أرفع قدراً من أن يُساق للتفكّه، والتندر. فالقارئ إذا تأمل ديوان "حافظ" لم يكد يعثر إلا على تلك الأبيات أو القصائد الإخوانية التي تمثل أقل جزء من أجزاء الديوان.

ولكن حافظاً -على أية حال- كان إذا أراد الفكاهة أبدع، شأنه في ذلك شأنه في شعره الجادّ الهادر الذي كان يجلجل في أمسيات القاهرة في الثلث الأول من القرن العشرين.

فمن تصويره الفكاهي البديع هجاؤه لرجل عظيم البطن، فهو يصفه بأنه يعطل سير أسلاك الكهرباء التي تحار إذا أرادت أن تتخذ لها طريقاً في (كرشه) الضخم مع أنها غالباً لا تعوقها أية حواجز:

عطَّلت فنّ الكهرباء فلم تجد ... شيئاً يعوق مسيرها إلاكا

تسري على وجه البسيطة لحظةً ... فتجوبها،وتحار في أحشاكا

ويهجو بائع كتف فيصف وجهه بأنه: صفيق سميك، لا تستطيع العنكبوت أن تتخذ لها بيتاً فوقه؛ لأنه أملس بارد، كما أنه من برودته لا يكاد يحترق إذا مسته النار. فهو يقترح على صاحبه أن يقدّ من وجهه أغلفة للكتب التي يبيعها، فيقول

أديم وجهك يا زنديق لو جعلت ... منه الوقاية والتجليد للكتب
لم يَعْلُها عنكبوتٌ أينما تُركتْ ... ولا تخاف عليها سطوةُ اللهبِ

ومن روائع فكاهات حافظ إبراهيم تلك القصيدة التي ألقاها في حفل تكريم أقامه نادي طنطا للشاعر القاضي حفني بك ناصف عام ١٩١٢ بمناسبة نقله من القضاء إلى وظيفة مفتش بوزارة المعارف، وكانت آنذاك من كبريات الوظائف

وكانت روح الدعابة والفكاهة عاملاً مشتركاً يجمع بين حافظ بك وحفني ناصف بك. ولعل هذا ما شجع حافظاً على أن ينطلق في هذه القصيدة على سجيته كما يبدو من مطلعها حيث يقول مخاطباً يوم تكريم صاحبه فيقول : إنك أيها اليوم السعيد قد شحذت همتي، وأرهقت مشاعري:

يا يوم تكريم حفني ... أرهفتَ للقول ذهني
فيا قريض أجبني ... ويا بيان أَعِنِّي

وبعد أن يمدح صاحبه بما يلائم المناسبة، ويصفه بأنه عالم جهبذ ضرب في كل علم بسهم، ويمتدح شعره الرقيق، ونثره الدقيق، وفكره الثاقب، ينتقل إلى روح

المرح فيقول إنه لولا مسكة من حياء وعقل ودين لدعا حضور إلى تناول الخمر احتفالاً بهذا اليوم السعيد في خمّارة (يني) الشهيرة:

لـــولا الحيـــاء ولـــولا دينـــي وعقـــلي وســـني
لقمـــت في يـــوم حفنـــي أدعـــو لســـكرة (ينِّـــي)
ولا أقـــــول لحفنـــــي مـــا قيـــل قـــدماً لمعـــن

وهو في هذا البيت الأخير يشير إلى قصة مشهورة في كتب التراث مفادها أن شاعراً عربياً أراد أن يختبر حلم معن بن زائدة الشيباني، وكان مشهوراً بحلمه فجاءه مادحاً فلما أدخل عليه وسُمح له بالإنشاد قال:

أَتَـذْكُرُ إذْ لحافُـك جلـد شـاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير؟

فقال معن: نعم. أذكر ذلك يا أخا العرب!!

فقال الشاعر:

وفي يمنـــاك عكـــاز طويـــل تذود به الكلاب عـن الهرير؟

فقال: نعم، وإنه كعصا موسى.

فقال الشاعر:

وتأوي كل مصطبة وسوقٍ بلا عبد لدئك ولا وزير

فقال معن: نعم. أذكر ذلك.

وظل الشاعر يعدد لمعن أيام أيام فقره وجوعه، ومعن يتقبل ذلك بحلم وأدب جم، حتى انتهى من أبياته مادحاً وأثابه معن ثواباً حسناً.

ولكن حافظاً لم يبر بوعده، بل ذكّر صاحبه حفني بك ناصف بماضيه في الأزهر، حين كان مجاوراً يعاني من مشقة دروس الأزهر فيقول مشيراً إلى كتب المجاورين التي تفيض بالشروح والمتون والحواشي:

لا تنس عيشاً تولى ... ما بين شرحٍ ومتن
ولّى شبابك فيه ... ما بين مدٍّ وغنِّ
وذقت من (جاء زيدٌ) ... ومن شروح (الشُّمنُيِّ
ومن حواشي الحواشي ... على متون (ابن جني)
ما لم تذقك الليالي ... قلبن ظهر المجن

[المد والغن: من الطرق الشائعة في نطق الحروف عند طلاب الأزهر و (جاء زيد) من أشهر الأمثلة في تعلم النحو العربي، والشمني فقيه حنفي توفي عام ٨٧٢هـ ممن تدرس مؤلفاتهم في الأزهر، وابن جني (ت٣٩٢هـ) من علماء اللغة القدامى المشهورين]

ثم يذكّر حافظ إبراهيم صاحبه بأيام مجاورته في الأزهر مع صديقه سلطان محمد [الذي أصبح فيما بعد صاحب لقب بكوية أيضاً، بعد أن عين أستاذاً بدار العلوم التي تخرج فيها] ومعاناتهما من أكل المش وقصع القمل الذي أرعض حافظ عن ذكره فقال:

أيـــام ســـلطان يلهـــو بمِشِّـــــه ، ويغنـــــي
يبـــت يقصـــع مـــا لم أســـمِّه أو أكنِّـــي
يشـــكو إليـــك وتشـــكو إليـــه، عيشـــة جـــبن

ويصور لنا حافظ كيف كان المجاورون يعانون من صداقة الجبن والمش ويتوقون إلى اللحم والدهن فلا يجدون إليهما سبيلا فيقول : إن سلطان محمد كاد يدعو حفني ناصف لقتله يأساً من تذوق اللحم فيقول:

أيـــام يـــدعوك: "حفنـــي مـــن . . أجـــرني"
هـــات المســـدس إني ســئمت مشيــ وجبنـــي
مـــن لي بـــدرهم لحـــمٍ عليـــه حبـــة ســـمن
قرمـــت والله حتـــى صـاحت عصـافير بطنـي
أيـــام عيـــدُك يـــومٌ تفـــوز فيـــه بـــدهن

ومن إخوانيات حافظ الفكاهية ما كتبه إلى صديقه حامد سرِّي وكان موظفاً بوزارة الزراعة، ومن جيران حافظ بمسكنه بالجيزة، وقد أقام حامد سري حفلاً تناول فيه ضيوف الحفل طعاماً شهياً، ونسي أن يدعو صديقه حافظ إبراهيم فكتب إليه عاتباً مهدداً بأنه سيشكوه لوزير الزراعة، ولمستشار الوزارة، لأنه اهتم بدعوة صهره المدعو مصطفى الخولي ونسي جاره حافظاً فقال جافظ:

أحامـد كيـف تنسـاني وبينـي وبينـك يـا أخـي صـلة الجـوار

سأشكو للوزير فإن توانى ... شكوتك بعده للمستشار

أيشبع مصطفى الخولي وأُمسي ... أعالج جوعتي في كِسْرِ داري

وبيتي فارغٌ لا شيء فيه ... سواي وإنني في البيت عاري

ومالي جزمةٌ سوداء حتى ... أوافيكم على قرب المزار

وعندي من صحابي الآن رهط ... إذا أكلوا فآسادٌ ضواري

وفي نهاية القصيدة يهدد حافظ إبراهيم صديقه وجاره بأنه ينتظر منه تكفيراً عن نسيانه – مائدة حافلة بأطايب الطعام يزينها خروف صغير متبل محمّر مغطاة بصنوف من الحلوى الشهية. ولئن لم يفعل فلينتظر هجاء قاسياً وتنديداً عنيفاً ببخله وتصيره في حق جاره وصاحبه:

فإن لم تَبْعَثَنَّ إليّ حالاً ... بمائدة على متن البخار

تُغطِّها من الحلوى صنوف ... ومن حمل تتبل بالبهار

فإني شاعرٌ يخشى لساني ... وسوف أريك عاقبة احتقاري

وهناك قصيدة شهيرة لحافظ إبراهيم مطلعها:

لي كساءُ أنعم به من كساء ... أنا فيه أتيه مثل الكسائي

امتدح فيها حافظ كساءه الجديد، وعدّد مزاياه، ووصف أناقته ورقته وفخامته، وتأثيره في عيون الناس، ودعا لكسائه الجديد بطول العمر والوقاية من الحسد فقال:

لا أحالتْ لك الحوادث لوناً وتعـدتك ناسـجات الجـواء
غفلـت عنـك للبلى نظـراتٌ وتخطتـــك إبـــرة الرّفّـــاء

ثم وصف بدلته القديمة التي صاحبته قبل هذا الكساء الجديد، وكيف طال عليها الأمد فتغيرت ألوانها كما تغير الحرباء ألوانها، حتى كانت تذكيراً مستمراً لأصدقتئه بطيلسان ابن حرب الذي وصفه شعراؤنا القدامى وقالوا عنه الكثير ويختتم حافظ رثاءه لبدلته الهالكة بأبيات خرجت من حلاوة الفكاهة إلى مرارة العتاب للمصريين الذين يقيسون المرء بمظهره لا بمخبره، فيقول:

صـحبتني قبـل اصـطحابك دهـراً بدلـــةٌ في تلـــون الحربـــاء
نسـبوها لطيلسـان (ابـن حـرب) نسـبة لم تكـن بـذات افـتراء
كنـــت فيهـــا إذا طرقـــت أناســـاً أنكـــروني كطـارق بـن وبـاء
كسـف الـدهر لونهـا واسـتعارت لون وجه الكذوب عند اللقاء
يـا ردائـي جعلتنـي عنـد قـومي فوق ما أشتهى وفوق الرجاء
إن قـــومي تـــروقهم جـــدة ثـــو ب ولا يعشـقون غـير الـرواء
قيمـة المـرء عنـدهم بـين ثـوب بـــاهرٍ لونـــه وبـــين حـــذاء
قعـد الفضـل بي وقمـتَ بعـزي بين صحبي،جزيت خير الجزاء

وكان حافظ مدعواً لإلقاء قصيدة في حفل جمعية رعاية الأطفال بحديقة الأزبكية. وعند دخوله أراد أن يداعبه، فطلب منه التذكرة، فقال له إنه حافظ

إبراهيم وجاء للمشاركة في الاحتفال السنوي كعادته بقصيدة، فزعم المشرف أنه لا يعرفه، وعليه أن يثبت شخصيته ببيتين يرتجلهما.

فضحك حافظ وقال له: لم أر أخبث منك مشرفاً . . وارتجل هذين البيتين

رياض الأزبكية قد تحلت بأنجابٍ كرامٍ أنت منهمُ
فهبها جنة فُتحت لخيرٍ وأدخلْنا مع المعفوّ عنهم

وضحك المشرف وقال : تفضل يا حافظ بك . .!!! .

ولما تولى السيد/ محمد البلاوي رياسة نقابة الأشراف بمصر، ذهب إليه "حافظ إبراهيم" يزوره عام ١٩٢٠ فلم يُسمح له بالدخول إلى نقيل الأشراف الذي كان إلى عهد قريب زميلاً لحافظ في دار الكتب المصرية.

فكتب إليه "حافظ" أبياتاً يعاتبه فيها ويذكره بزمالتهما القديمة في العمل ويقول له إنه لو زار (البابا) -رئيس النصارى- أو (الباب) -رئيس طائفة من الفرق الشيعية- لانفتحت له أبوابهما، فلما يُحال بينه وبين لقاء الحسيب النسيب نقيب السادة الأشراف، ويذكر "حافظ" لصديقه أنه شريف فلا تجوز عليه الصدقة خوفاً من أن يكون صاحبه قد ظن أنه جاء يطلب صدقة. ويهدد صاحبه في آخر الأبيات بأن هذا آخر العهد بينهما فيقول حافظ:

قد كان بابك مفتوحاً لقاصِدِهِ واليوم أوصد دون القاصد الباب
هلا ذكرت(بدار الكتْبِ) صحبتنا إذنحن رغم صروف الدهرأحباب

لـو أنني جئـت (للبابـا) لأكرمنـي ... وكـان يكرمنـي لـو جئتـه (البـاب)
لا تخش جـائزة قـد جئـت أطلبهـا ... إني شريـف ولـلأشراف أحسـاب
فاهنأ بمانلت مـن فضـل وإن قطعـت ... بيـني وبينـك بعـد اليـوم أسباب

على أن أروع ما نظم "حافظ" في الفكاهة -في رأينا- تلك الأبيات التي قالها في صديقه الدكتور محجوب ثابت الطبيب السياسي الشهير، وكان ذلك في منزل الزعيم سعد زغلول باشا.

وكان محجوب ثابت معروفاً بلوازمه الغريبة مثل حصانه الذي أطلق أصدقاؤه عليه اسم (مكسويني) -وهو اسم بطل أيرلندي شهير مات منتحراً جوعاً كناية عن أن صاحبه يقسو عليه بتجويعه، وكان يجوب به شوارع القاهرة، ويغشى به المنتديات الأدبية والسياسية والمقاهي.

على أن أغرب لازمة من لوازمه كانت تلك (القافات) الكثيرة التي تشيع في كلامه، والتي اتخذ منها "شوقي وحافظ والأسمر" وغيرهم من شعراء عصرهم أسلوباً للسخرية من صديقهم "محجوب ثابت"، قال "حافظ إبراهيم":

يُرغِـى ويُزبِـدُ بالقافـات تحسـبها ... قصـف المـدافع في أفـقِ البسـاتين
مـن كـل قـافٍ كـأن الله صـوّرها ... مـن مـارجٍ النـار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلِكُهـا ... واختص سُبحانه بالكاف والنونِ

ويتحدث حافظ عن غرائب محجوب ثابت حين يخطب في جمعٍ من الناس فينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن فكرة إلى أخرى، ومن بلدٍ إلى بلدٍ؛ حتى يرهق

مستمعيه. وهو لا يفعل ذلك عن غباء أو سكر؛ وإنما هي العبقرية الفذة، والإبداع الغريب:

يغيبُ عنه الحِجَا حِيناً ويحضُرُهُ ... حيناً فيخلط مختلاً بموزون

لا يأمنُ السامعُ المسكين وثبته ... من(كردفان)إلى أعلى(فلسطين)

بينا تراه ينادي الناس في (حلبٍ) ... إذا به يتحدى القوم في (الصين)

ويذكر حافظ تلك الرؤى والأحلام التي كان محجوب ثابت يعيش فيها دائماً، فقد كان معروفاً عنه أنه يرى دائماً احلاماً وردية، ولا يملّ من تكرارها على مسامع أصدقائه. وكانت أحلامه تتراوح بين عضوية البرلمان، وكرسي الوزارة، أو الزواج من فتاة بكر لعوب غنية، فيقول حافظ:

يبيت ينسج أحلاماً مذهّبة ... تغني تفاسيرها عن(ابن سيرين)

طوراً وزيراً مشاعاً في وزارته ... يصرف الأمر في كل الدواوين

وتارةً زوجَ عطبُولٍ خُدلَّجَةٍ ... حسناء تملك آلاف الفدادين

يُعفَى من المهر إكراماً للحيته ... وما أظنه من دنيا ومن دين